رمزية المقدس في السرد الليبي، إبراهيم الكوني نموذجا

أ.نسمة عيساوي

جامعة عنابة- الجزائر

ملخص البحث

اشتغل إبراهيم الكوني في نتاجه السردي على عدة فضاءات وعوالم تخييلية، جعلت القارئ يستلذ روعة الخطاب الذي يحمل طابعه الفلسفي والوجودي وكل ما يعكس ثقافة قبائل الطوارق، من خلال معالجته لقضايا إنسانية وجودية، لذلك نجده في كل رواياته يستحضر تقاليد الأسلاف ومعتقداتهم ونواميس الصحراء، لذلك ما نجده عنده عبارة عن سرد عجائبي يعكس نظرة الكاتب لواقعه فراح يصوره بمختلف الأبعاد التي يرمي من خلالها إلى إيصال فكرة قداسة فضاء الصحراء الذي تتغذى منه كل أفكاره وخيالاته.

الكلمات المفتاحية: المقدس، الفضاء الصحراوي، نواميس الصحراء، الرمز، الطوارق.

Abstract:

In his narrative production, Ibrahim Al-Koni worked on several imaginary spaces and worlds, which made the reader appreciate the splendor of the discourse that bears his philosophical and existential character, and everything that reflects the culture of the Tuareg tribes, through his treatment of human and existential questions. It is therefore found in all his novels evoking the traditions of the ancestors, their beliefs, and the laws of the desert. What we find in him is therefore a miraculous narration that reflects the writer's gaze on his reality, so he has represented it in different dimensions, through which he aims to convey the idea of the sacredness of life. desert space on which feed all his thoughts and fantasies.

Keywords: sacred, desert space, desert laws, symbol, Tuareg.

مقدمة

أدى انفتاح الرواية العربية على ثقافات العالم إلى بروزها بشكل سريع بحكم أنّها الجنس الوحيد القادر على تصوير الواقع ومحاكاته، متعالقة مع مختلف الأجناس الأدبية الأخرى شاقة طريقها نحو العالمية بفضل اعتمادها على أدوات تجريبية حديثة، من خلال كسرها للتقاليد القديمة، وهدا الانفتاح جعلها تلق رواجا كبيرا داخل الساحة الأدبية والنقدية بفضل تحصيلها لنموذج مستقل ومميز له خصائصه الفنية وتشكّلاته السردية، وأدواتها التعبيرية الجديدة لتخلق هويتها وخصوصيتها المنفردة.

ومن هذه الخصوصية اتجاه الرواية الجديدة إلى موطن وفضاء آخر لا يقل أهمية عن فضاء المدينة والساحل وهو فضاء الصحراء، هذا الفضاء الواسع والشاسع والمنفتح واللامحدود، أين وجدت الحرية المطلقة في اعتلائها العجائبي والغرائبي وتبنيها الأسطوري والخرافي واعتمادها عنصر التخييل كأداة فاعلة تعبر من خلالها على جوهر الكتابة الصحراوية وعلى أسطورة الصحراء المقدسة، من خلال نبشها للمخيال الشعبي الجمعي لقبائل الطوارق لتصبح الرواية الجديدة المنفتحة على التجدد والاستمرار والتحرر والانعتاق من قيود الحضارة ولبسها لثوب التراث الصحراوي بكل ما تحمله من موروثات أسطورية وخرافية ومن بين أهم الروائيين الصحراويين نذكر إبراهيم الكوني صاحب التجربة الجديدة ارتبطت جل كتاباته بالمقدس والطهارة، وهو من أبرز الروائيين الليبيين المعاصرين لتميزه وتفرده في تصوير ورسم عوالم الصحراء الليبية بكل تفاصيلها الدقيقة وحيثياتها الموحية والدالة على أصالة هذا المجتمع الطارقي.

وعلى هذا الأساس سنحاول في ورقتنا البحثية هذه عرض تجربة إبراهيم الكوني من خلال الكشف عن خطاب المقدس وكل الأنساق المشكلة لهذا الخطاب محاولين تحديد تجليات المقدس في أعمال إبراهيم الكوني، وتيان دلالاته الظاهرة والخفية.

أولا: مفهوم المقدس:

في الحقيقة لا يمكن إعطاء مفهوم محدد للفظة المقدس، ويتعسر الإمساك بمفهوم واحد بسبب تداخل هذا المفهوم مع عدة مفاهيم أخرى معقدة (فلسفية، أنثروبولوجية، دينية، نفسية، إلخ)، فنجده يحمل مفهوم الطهارة والنقاء، ويرجع هذا الاختلاف إلى اختلاف المذاهب والفلسفات والأنظمة المختلفة، فلفظة المقدس تختلف باختلاف الوسط الذي وضعت فيه، فنجدها مثلا تحمل معنى الدنيوي أو تعرف

بمقابلتها(المدنس)، ويفهم منه كذلك أنّه كل ما يجذب الانسان إليه بحكم أنّه يرتبط بالدين وبكل رموزه التعبيرية.

وإذا أردنا تقديم مفهوم بسيط للمقدس فيمكن أن نقول أنّه كل "ما يحيل إلى الموجود المفارق أو العلي السامي الطاهر المبارك الذي يحظى بالاحترام والتبجيل بإطلاقه، ولا يجوز تدنيسه وهتكه والاعتداء عليه وخرق حدوده وأحكامه، ويلحق به على سبيل التقديس نفسه تجليات في القول أو الفعلأو الاختبار"(جدعان، 2009، 22)، كما تحيل لفظة القداسة على مفاهيم عقائدية فألفاظ التقديس والقداسة تحيل في معناها العام إلى مرجعية دينية بالأساس سواء كان هذا المقدس مكانا أو كائنا حيا.

جاء في لسان العرب:" قدّس، التقدّيس، تنزيه الله تعالى أي تنزيه الله عزوجل وفي التهذيب:القدس، تنزيه الله تعالى، والمتقدّس، القدّوس ويقال القدوس فعّول من القدّس وهو الطهارة، صفة من صفات الله تعالى تعني الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص والقدس بضم الدال وسكونها اسم ومصدر ومنه قيل للجنة حظيرة القدس والتّقديس التّطهير والتّبريك وتقّدس أي تطهّر، وفي التنزيل العزيز"ونحن نسبح بحمدك .نقدّس لك"(ابن منظور، 1956، 169) تحيل لفظة القداسة هنا على الطهر والنقاء والتطهير وتعظيم الله سبحانه وتعالى والشئ المقدس هو الشئ المبارك الذي تنزل فيه البركة والعطاء، والمقدس هو الشئ الطاهر المنزهعن النقائص، اذن فالمقدس يحمل كل ما هوايجابي وخيّر، وكما "رأينا سابقا أنّ القداسة قريبة من الطهارة، وهي أحد قطبي القدسي، ولهذا تكون خطرة، ولابد لكل اتصال بها أن يكون مسبوقا بطقس مناسب"(شلحد، 1997، 39) .فالقداسة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالطقوس والشعائر التي على أساسها يعرف نوع المقدس الذي تمارسه.

ثانيا–المقدس وعلاقته بالصحراء :

تتمحور أعمال الكوني مجتمعة حول عالم الصحراء والطوارق والأسلاف ، حيث عبّر عن هذا العالم الغريب العجيب الذي يعج بكل شيء ويحمل على البحث عن الوجود عبر مختلف مكوناته الجغرافية والاجتماعية والدينية والأسطورية، إنّه عالم الخيال بدون منازع وفيه ينزع الكاتب لباس الواقعي ويلبس لباس الخياليّ أو المتخيل ، من خلال إعادة صناعة صحرائه العجيبة وتصويرها تصويرا دقيقا معتمدا فيها على تشريح صحرائه جزءا جزءا، لذلك نجد الروائي شديد الحرص والحذر في توظيف أمكنته وشخوصه، وتمكنه من بسط الأرض الأسطورة في عالم سردي مميز يحمل خصوصية مؤلفه ويكشف

الستار عن مجتمع الطوارق العريق، وعليه فإنّ كل شيء في الصحراء له أبعاده ودلالاته الخفية كل له أسطورته الخاصة به التّي تؤرخ له البقاء والخلود والاستمرارية، بحكم أنّ الروائي يروي عن صحرائه الخيالية وفق رؤية ميتافيزيقية ولهذا يربط دائما شخوصه بالمكان أي اهتمامه بعلاقة الانسان بالطبيعة هذه العلاقة الحميمية التّي تجعل الانسان الصحراوي يعيش لذة البقاء في الصحراء الواسعة حرا طليقا لا تحكمه القوانين ولا دفاتر، كما يعيش لذة الألم عندما تقسو عليه الصحراء فتحوله إلى إنسان تائه يبحث عن جوهر الكون والوجود، يعيش قسوة الطبيعة ومتاهة البحث عن المفقود.بكل أبعاده وامتداده اللامحدود.

يقدم لنا الكوني صحراءه في طبق مقدس يحمل معطيات الواقع المحسوس بجميع قيمه ونواميسه مستلهما ذلك الواقع التخييلي من الغيبيات والأساطير والعقائد والطقوس الروحية التّي تصل إلى درجة التقديس والتعظيم يظهرها الروائي في ثوب الطهر والنقاء والتطهير من الأخطاء والتعالي بتلك الممارسات والنواميس إلى القداسة" لأنّ المقدس ليس الديني فقط(وإن كانت جذوره دينية) وانّما يكمن في عاداتنا اليومية واعتقاداتنا في تفاؤلنا وتشاؤمنا، في النظم التي تحكمنا والطرق التي نحكم بها في العلاقات ضمن العمل في العائلة وحتى المؤسسة الزوجية، وفي البديهيات والمسلمات والحكايا"(عبد الرحمان، 2000، 12)، فالمقدس يعتبر جزء لا يتجزأ من الدين وهو موجود في كل الديانات، ويظهر المقدس في شكل، صلوات، حركات، أصنام، عادات، تقاليد، نواميس،...إلخ هذه الاعتقادات والممارسات نشأت بالضرورة بين الإنسان وبين مختلف التعاملات من تقديم القرابين والطقوس، وللتوضيح أكثر " يمكن القول أنّ تاريخ الأديان ومن أكثرها بدائية إلى أحستها اعدادا انما هو مشكّل بتراكمات مقدسات وبمظاهر وقائع مقدسة ومن أكثر التجليات بدائية: على سبيل المثال، اظهار المقدس في موضوع ما، حجر أو شجرة...إلخ"(الياد، 1988، 18) وهذا ما وجدناه في خطابات الكوني التّي تعج بمثل هذه المقدسات التّي وثّقتها الأساطير وتراكمات التاريخ وحفظتها الرموز والرسوم الموجودة على حجارة الكهوف، كل هذه المعتقدات الاجتماعية والدينية ساهمت بشكل أو بآخر في تكوين صورة المقدس، والتّي نجدها كثيرة جدا في خطابات الكوني المهووس بالفردوس المفقود، هذا الفردوس المقدس الذي يحمل مقدسات الصحراء بكل أبعادها الرمزية والأسطورية، فعلاقة المقدس بالصحراء علاقة حميمية تمتّ بكل معاني الطهر وألفة المكان وتاريخه بحكم أنّ الصحراء مليئة بالخرافات والأساطير والميثولوجيا، وهي فضاء لكل الموجودات والكائنات وعليه فإنّ " النسق العقدي الذي يخترق نصوص الكوني ويسيجها، فهو نسق المعتقدات

الافريقية القديمة لأقوام البامبارا ويرتبط حضور هذه المعتقدات في الحالات التي يعجز فيها الديني والعقلاني عن تفسير الظواهر التي تعاني منها الصحراء."(الميلودي، 2013، 140) انّ معتقدات الكوني مزيج من الميثولوجيا والأساطير وكل ما يأسس لعالم الكوني وشخوصه.

والمطلع على روايات الكوني يجد أنّ الكاتب في كل خطاب يستحضر تقاليد الأسلاف ومعتقداتهم مؤمنا بنواميس الصحراء وشعائرها، وبين هذا التباين وذاك شكّل إبراهيم الكوني مزيجا من الخطابات المتباينة أهمها استحضاره للمقدس وتثمين التراث ومختلف مزاياه رغبة في تأسيس ظاهرة في الكتابة تحمل طابعا يختلف عن سابقاتها، فالصحراء عند الكوني تمثل التراث بعينه.

تجاوز المقدس في خطابات الكوني كل العتبات لينفتح على كل ما هو غيبي يروى على لسان الأساطير ووثائق التاريخ والعادات والتقاليد، مما جعل هذا الخطاب السردي منفتح على خصائص جمالية وفنية، ومن أهمها تنوع العوالم التخييلية بكل ما تجسده من عناصر وامتزاجها مع الكائن الصحراوي.فعلى سبيل المثال نجد من عادات الصحراويين اكرام الضيف واعطائه مكانة خاصة اذا مانزل لديهم" فالضيف الكائن المقدس بامتياز في حضارة الصحراء، هو حامل بركة عادية، أما الخارق فهة ليس فقط الوثن ذا الوجه البشع، الكريه، بل هو أيضا الاستثنائي الفارد، أي كل ما لا تركه الأفهام، وإنّ الأنثى ذات الخصوبة العظيمة، المعيار الذي لا ينضب، شيخ القبيلة صاحب الأحكام المرموقة، الشاعر الذي يلهب النفوس، الحجر الذي يجرح بلا عقاب، الشجرة التّي تزهر وتزهر هناك حيث لا يكون سوى الأسى، إنّ كل الكائنات والأغراض تبدو حائزة على سلطة خارقة والرائع المدهش يملأ كل أرجاء الصحراء، ولكن بطريقة أقل غموضاوالتباسا، بمعنى أنّ الكائنات والأشياء التّي يتمركز فيها أحيانا لا تنطبع دوما انطباعا كافيا بطابعه وميسمه، إلى حد تصبح فيه موضع عبادة حقيقية"(شلحد، 1997، 43)

لقد جسد الكوني من خلال رسمه وإعادة بعث مقدساته على امتداد نتاجه السردي إلى العودة بعجلة الزمن إلى الزمن البدائي الأول الذي يجسده دور الآلهة ورسالة الأسلاف الواجب تبليغها للأخلاف والتواصل مع الكون الماورائي وغيرها من المقدسات البدائية الحاملة للطابع الرمزي، ورحلة البحث عن الخلود أو عالم الوجود الأول، تبدأ علاقة المقدس بالصحراء من خلال استرجاع الراوي لعدة مدلولات ومعان عديدة تولدت عن المفارقات الزمنية بين كل حقبة وأخرى وهذا ما حمل معه الخصوصية السردية المغايرة لطبيعة الرواية المعاصرة بالاعتماد على المدلول العميق وتضخيم أدق التفاصيل التّي تحمل قيما أسطورية خيالية مختلفة، فلقد حاول الكوني رسم ملامح صورة مغايرة لعالم الصحراء لامست جوانبها

الطبيعية والميتافيزيقية والثقافية مع تبيان علاقة الإنسان ببيئته من ناحية وبين مختلف كائنات الصحراء من ناحية أخرى، لذلك نجد فضاء الصحراء عنده تحول من ساحة جغرافية شاسعة مجردة إلة تشكيلات روحية وجدانية ثقافية متفردة استنطقها قلم الكوني الذي استطاع وبكل جدارة أن يزرع نوعا من الوجد الصوفي الطاهر في نفوس قاطني الصحراء عامة وقبائل الطوارق خاصة، حيث حول علاقة الإنسان الطارقي بصحرائه إلى صلة روحية أبدية يرتفع معها هذا التعلق الأزلي إلى درجة التقديس والتبجيل، وعلى هذا الأساس بالضبط فقد أثارت ثنائية المقدس والمدنس جدلا كبيرا لدى الدارسين لما تحتويه من مفاهيم عقائدية، فألفاظ التقديس والقداسة مثلا تحيل بالدرجة الأولى إلى مرجعية دينية سواء تعلق الأمر بالمقدس المكاني أو الكائنات أو الكتب...إلخ وهذا يعود إلى طبيعة المجتمع الصحراوي البدائي وتصوراتهم الغيبية والروحية وفهمهم للطبيعة المتقلبة وتفسيراتهم الغيبية مثل القحط والجذب وفق نمط أسطوري بحيث يصور كل الطقوس والممارسات الدينية والعادات الاجتماعية وكل ما يمت بصلة إلى البيئة من نبات ومياه وحيوان الذي يلعب دورا مهما بارتباطهم الوثيق بعالم الصحراء ومقدساتها، ولهذا يمكن أن نقول أنّ علاقة المقدس بالصحراء مثل علاقة الأم بوليدها، فرواية الصحراء ولدت من رحم المقدس والقربان والتضحية التي هي "عبارة عن فعل يرمز للفصل والانفصال وتقديم الخيرات أو أنفسنا كقربان، علامة على الخضوع أو الطاعة أو التوبة أو الحب، وهو يقيم بطريقة فعالة العلاقات غير المتماثلة بين القوى فوق الطبيعة المتوسل إليها بين المجتمع الإنساني وذلك بواسطة مضحى وضحية"(ريفيير، 2015، 178)، وهذا ما تختتمه جميع روايات الكوني وهي الضحية والمضحى وقربان لشجرة الرتم المباركة معتمدا بذلك الكوني على رؤية ميثولوجية ممتطيا عالم الخيال بكل ما يحمله من دلالات وعلامات توحي على أنّ الناموس الصحراوي يحتكم إلى قوى الأساطير والتاريخ والمقدس والدين والميثولوجيا والملحمة التّي تشكلها كل عناصر الطبيعة الصحراوية وتنزع إلى البحث عن عالم الوجود وتجلياته بين الواقعي والخياليّ حيث " تبرز كتابات الكوني على النقيض، من حيث أنّها تؤسس لتخييل صحراوي بربري، يتميز بوضعيه حكائية وأنثروبولوجية ولغوية خاصة، فالعالم التخييلي الأدبي، في روايات الكوني له قوى فاعلة متداخلة (الإنس، الجن، الحيوان، الأشياء، الطوطميات) وفضاءات مغايرة (الصحراء، الوديان، الكهوف، الجبال، المهاوي، الخلوات، المدن الخفية، الأزمنة المطلقة) وإذا كان من البديهي أنّ روايات الكوني لها قوة السلطة الدينية، فإنّ الجلي المدرك أنّ هذه الروايات تخترق الوعي التخييلي بما تحمله من معارف وقيم قديمة"(الميلودي، 2013، 134) وهنا يصبح كل شئ في

الصحراء له فاعليته في صنع عوالمه الخاصة به من حيث تفاعلها مع مكونات بيئتها هذا التفاعل هو الذي يصنع روح القداسة وطهرها.

يمثل الرمز أحد أهم أدوات التواصل بين الإنسان وغيره من الكائنات الأخرى، ويتعلق بالجانب الديني على وجه الخصوص وعلى إثره يصبح الرمز له علاقة وطيدة بالدين وهذا ما يطلق عليه بالطوطم، ويبقى الرمز مرتبط بجانبه الديني المقدس المتعارف عليه (الطابو)، لأنّ الرمز إذا فقد طابعه القدسي فقد رمزيته الدينية التّي جاء من أجلها، ولهذا نرى أنّ الرمزيّة لها دور حيوي في إعطاء المقدس قدسيته، لارتباط الرمز منذ القديم بكل ما يتعلق بالممارسات الدينية والشعائر مثل الصلاة والرقص، ...إلخ.

وعليه يرتبط الرمز بكل الأمور الدينية والأماكن والآلهة والأساطير والطقوس التّي تشير إلى موضع القداسة، حيث يرمز المكان المقدس إلى صورة مصغرة للعالم من منظور ديني.

عمد الكوني إلى استدعاء المقدس عبر صور غير مباشرة وظف من خلالها شخصيات وأمكنة وأزمنة معتمدا في ذلك على الخيال ليضفي على عالمه طابع القداسة والابهام، وهذا لضرورة فنية يراد عدم التصريح بها عبر عنصر التشويق والغرابة، فالكوني في كل رواياته استدعى الرموز للكشف عن المقدس لديه والقريب جدا إلى لأسطورة الدينية والطبيعية وأساطير الخلق.

ثالثا–تجليات المقدس في خطابات إبراهيم الكوني:

الملاحظ لعالم الكوني يجد أنّه جسد عالم المجتمع الطارقي بكل حيثياته الدقيقة وبكل طبقاته الاجتماعية، الدينية، الثقافية، الحضارية، ليعكطس لنا صورة وهوية هذه القبائل أين يجد السرد وسيلته للتعريف

بعراقة قبائله، فيذهب بذلك إلى توظيف مكونات سرده ويعطيها قيمة وأهمية كبيرة بغية الكشف عن مكانة الصحراء ومكوناتها في تكوين الإنسان وكشف اللثام عن خصوصية المجتمع الصحراوي، فأسس بذلك عالما أسطوريا مليئا بالمفارقات، عالما يحمل في تفاصيله العديد من الثنائيات والتفاصيل لتعطيه عالما ابداعيا خياليا، واعلاء صورة الصحراء وسكانها من خلال النبش في حفريات التاريخ المكون لهذه القبائل، وهنا سنقوم بعرض أهم المقدسات التّي اعتمدها الكوني في انشاء مشروعه السردي الضخم.

1–شجرة الرتم:

ترتبط شجرة الرتم عند المجتمع الطارقي بالجانب الروحي والديني، وتنحى منحى العلاج وما لهذه الشجرة من قدرةكبيرة على التحمل والصبر وسط صحراء شاسعة قاحلة تصارع أهوال الطبيعة وتقلباتها، فشجرة لها علاقة وطيدة وروحانية، هذه العلاقة اكتسبت من الأسلاف وقداسة زهرة الرتم في الصحراء يعود بالدرجةالأولى إلى قداستها ثم إلى أهوائهم " وهكذا يتحول الزهر إلى أعجوبة تروي وجع الطوارق وعشقهم، ويتغير بالتالي موقعها في النص الكوني من مجرد بتلات هشاشة إلى كائن يتوسط حياتين فقد سبقت الجميع إلى الوطن الأول، لذا كان لزاما على إبراهيم الكوني أن يذكرها بوصفها أزهارا مقدسة، وقد نالت حقا معاني التعظيم والإجلال في المواضيع التّي ذكرت فيها"(معلم، 2016، 124) فأسطورة الرتم ترسخت في وجدان وأذهان سكان الصحراء وأصبحت تمثل لديهم الخلود وسر البحث عن الوجود، لاسيما أنّ هذه الشجرة المقدسة تحمل في طياتها الأمل والتمسك والبقاء، لأنها الشجرة الوحيدة التّي تتحمل كل المعاناة الطبيعية لكنها تصمم على العيش والبقاء والاستمرار إلا اذا اقتلعتها أيادي الأغيار كما يقول الكوني فإنها تفنى وتموت.

2-الفردوس المفقود:

يحملنا الكوني من خلال فضائه الأسطوري والعجائبي إلى البحث عن الفردوس المفقود أو الجنة المفقودة، حيث يرى أنّ هناك مكان مقدس في الصحراء يوجد في مكان ما، غير معروف، إنّه الفردوس المفقود، الذي توجد فيه كل الأشياء المطلقة، الفرح والسعادة والحياة الأزلية، ويرى الكوني أنّ هذا المكان المفقود لا يوجد في الخرائط الجغرافية ولم يذكر في التاريخ ولا حتى في أسفار الرحالة والمستكشفين، ونتيجة للخطأ الذي ارتكبه ابن آدمفي تحدي الإله ومحاولة سرقته للخلود تم الزج به وطرده من هذا الفردوس الخالد ليعيش رحلة البحث عن المفقود ويذوق طعم المعاناة والألم والموت، وفي عالم الكوني الصحراء المفقودة هي صحراء "واو" كما صرح بها وهي نسخة أخرى للفردوس المفقود، لهذا نجد أنّ المكان المفقود مكان مقدس ومبجل عن غيره من الأمكنة وأزمة تسيره.

3-الودان:

حرص الكوني على توظيف العديد من الحيوانات في كتاباته لا لشئ سوى للرمزيةالتّي تحملها هذه الحيوانات والأهمية التّي تزخر بها ومن أبرز الحيوانات التّي لاقت اهتماما كبيرا من طرف الكاتب نجد حيوان " الودان" الذي وظفه الروائي كرمز طوطمي عند قبائل الطوارق لذلك رفعوا هذا الحيوان إلى درجة

التقديس كونهم متيقنين بالأسطورةالتي تقول بأنّ الطوارق ينحدرون من نسل حيوان الودان وهذا ما يبرر تمسكهم به والتشبث به باعتباره طوطمهم المقدس حيث إنّ" تكثيف الخطاب حول الودان ثم انتاحه على دلالات محدودة لا يرمي إلا على التأكيد أن الودان هو طوطم الطوارق، لذا أولاه الكوني أهمية كبيرة عندما راح يعيد تشكيل المادة الخاصة به في كل الروايات تقريبا، وهذا يفسر بأهمية الودان كرمز طوطمي في المجتمع الطارقي، " فالودان الحيوان الجبلي المقدس، عند الطوارق وعموم الصحراويين يلعب دورا مهما في اسناد الأنساب(طوطم) وإفاثة الإنسان في حالات شتى" (الميلودي، 2013، 174) اتخذ الكوني من هذا الحيوان صفة الشجاعة والرهبة وقد ورث هذا الاعتقاد من أجداده باتخاذ هذا الحيوان كطوطم لهم بحكم أن " الطوطم ينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه بعلامات أو رموز على نحو ما يعبر عنه بالفأل والطيرة "(خان، 1981، 67) هذا التقديس والتبجيل لهذا الحيوان أعطى للروايات بعدا جماليا وأسطوريا وهذا راجع لطبيعةالفضاء الصحراوي بكل مكوناته النباتية والحيوانية وكل شيء في الصحراء له رمزيته ودلالته وموضعه الخاص.

4-الطوطم:

تتمثل الطوطمية في العلاقة القائمة بين الحيوان والإنسان الصحراوي، حيث شير كلود يفي ستراوس إلى وجود علاقة دينية/قدسية بين الإنسان وطوطمه، لذلك يعتبر الطوطم مهما كان نوعه مقدسا ويمنع منعا باتا المساس به أو الاقتراب منه وهذا ما نجده في خطابات الكوني عامة وظفها كرمز حامل للأبعاد والدلالات الثقافية والعجائبية المكونة لعالم الطوارق خاصة علاقة الإنسان بالحيوان، وتظهر جليا في علاقة الأسلاف بماضيهم العريق فهذه الروابط الطوطمية بين الإنسان والحيوان والنبات. والطوطم عند الكوني هو الحامي للجماعة والحامل لمجموعة الطقوس والشعائر الدينية حيث يعرفه فرويد" هو حيوان يؤكل لحمه، مسالم، أو خطر، مخيف، وفي النادر شجرة أو قوة الطبيعة (مطر، ماء) ذو علاقة خصوصية مع كامل العشيرة، فالطوطم هو الأب الأول للعشيرة، ومن ثم الروح الحامية لها، المعين، الذي يرسل لها الوحي، والذي إذا كان هناك خطرا يعرف أبناءه ويصونهم، ومن أجل ذلك يخضع أبناء الطوطم لالتزام مقدّس، رادع ذاتيا، يقضي بأن لا يقتلوا طوطمهم أو يستغنوا عن لحمه."(فرويد، 1983، 23-24) وهذا يدل على أنّ العشيرة أو المجتمع يحترم طوطمه ويتخذه رمزا لثقافتهم، وتظهر الطوطمية في خطابات الكوني من خلال رسومات الحيوانات وأسماء الآلهة، والنقوش المحفورة على جدرانالكهوف والودان والابل وشجرةالرتم وغيرها من الرموز الطوطمية.

وما يمكن أن نقوله هو أنّ المقدس عند الكوني يتمثل في كل ما يوجد وكل ما يكوّن الصحراء كمكان مأثث ومليئ بالأساطير و الأمكنة المقدسة وتصوير لعلاقة الدين والإنسان الصحراوي، قام الكوني بابراز صورة المقدس من خلال توظيفه لكثير من مظاهر الدين والثقافة من خلال تركيزه على الحجر، الأضرحة، الكهوف، السفح، الهضبة، وتمثل هذه الأمكنة الذاكرة التاريخية الموثقة في الأسطورة، فقد اشتغل الكوني على عدة عوالم ممكنة وعلى عدة ثنائيات ضدية، الموت/الحياة، المقدس/ المدنس، العالم السفلي(الجن)/العالم العلوي، التيه، كل هذه الدلالات التّي اشتغل عليها الكوني ساعدت ومكنت من تسريع وتوالد وتيرة السرد.

ومن الأمثلة التي يمكن أن نستشهد بها على أصالة المقدس وحضوره في كتابات الكوني نورد البعض منها:

رواية المجوس لإبراهيم الكوني تحكي محاولة استعادة الجنة المفقودة التي فقدت بسبب خطيئة الجد الأكبر للبشر "مندام" وعلى إثرها نزل البشر من الفردوس إلى عالم الشقاء، ولا تزال هذه اللعنة تلاحق نسل هذا الجد. ولهذا اعتبر الفردوس المفقود أحد أهم مقدسات عالم الصحراء، الذي لا يزال سكانه يبحثون عنه ظنا منهم أنه موجود بمكان ما في الصحراء.

أما رواية عشب الليل فإنّ مقدسها هو الظلمة والسواد الأعظم، فالبسبة إليه الحياة الحقة في حين يمثل له الضوء الدنس وهذا هو الصراع القائم بين المقدس والمدنس أي الظلمة والنور، وهذا يرمز إلى أنّ الكوني يرمي من خلال رواياته هذه إلى عدوانية الإنسان تجاه نفسه وتجاه أبناءه، فالرواية تمثل الصراع بين عالم الأخلاق المثالي المقدس وعالم الجسد الدنيوي المدنس.

أما في رواية السحرة فقد تجلى المقدس في متنها بكثرة، بحيث كل ما تحويه عبارة عن لغة مشفرة ترمز إلى شيء معين، ابتداء من الشخصيات كشخصية "تانيت" التّي تمثل رمز السماء وآلهة الحب والخصوبة اكتست تانيت طابع القداسة انطلاقا من الرمز الذي أطلقوه عليها وهو رمز التقاطع (+) ومن ذلك الحين اكتسى هذا الرمز طابع القداسة وأصبح وسما يحمي الصحراويين من التيه والمتطفلين، كذلك نجد الإله " أمناي" إله النجاة عند قبائل الطوارق كانو يقيمون له القرابين والأضاحي.هذا ما أضفى عليه طابع القداسة والدين. ولعل ما ترمز إليه رواية السحرة هو العنوان في حذ ذاته الذي يحيل إلى السحر بالنسبة لقبائل البدو والرحل وجاء السحر لتفسير بعض الظواهر التّي لها تأثيرات نفسية وقوة عضمى، حيث

اكتسب الساحر مكانة مرموقة ومقدسة بفضل احترافه للعالم الخفي وفك رموزه وطلاسيمه، أما رواية نزيف الحجر تحكي لنا فضاء الصحراء الصعب القاتل، لأنّ والدة أسوف ماتت بسبب مداهمة السيل للقبيلة فماتت غرقا، هنا يعرفنا الكوني بامتداد الصحراء وقساوتها وأنّ الذي يخون العهد فيها نهايته الموت المحتم، ناهيك عن الرمزية التّي تخملها الصحراء في هذه الرواية فالصحراء تمثل النتوء وهي القمة التّي يطل منها الطائر الذي يريد العيش بحرية وطليقا في فضاء زاخم بكل المتحركات، وهذا ما رمز إليه أسوف هطا الشخص المحب للحرية ومصالحة الإنسان مع الطبيعة لأنّها السبيل الأول للخلاص والبقاء وهي التّي تجسد الحرية واستقلال النفس عن الجسد، فانسان الكوني انسان عاشق للحرية يبحث دائما عن الخلاص والانعتاق من أعلال الهواجس.

في رواية من "أنت أيها الملاك" يغاير الكوني طريقة كتابته ويفاجأنا ببداية غير متوقعة في هذه الرواية، تتناول رمزية الاسم وغرابته وعدم الاعتراف به أمام موظفي السجل المدني وهذا ما منع يوجوتن من حق الاسم والتمدرس، فغرابة الاسم لها دلالات ورموز متأصلة عند النسان الصحراوي الذي يرفض كل ذخيل وغريب تطأ قدماه هذه الأرض المقدسة، وتكمن هذه الرمزية في بعض الأمور المقدسة المتعلقة بالإنسان الصحراوي على مر العصور وامتداد التاريخ، فتلك الروح الهائمة في الصحاري الباحثة عن الخلاص هي نفسها الروح التّي يجيد قراءة التمائم وممارسة الطقوس، والتمسك بفكرة النبوءة والأعراف والتقاليد وكل هذه الأمور تشكل سرا للإنسان الصحراوي في المحافظة على تقاليد أسلافه ليورثها إلى أخلافه، كما يصور لنا الكاتب كل الأمور المتعلقة بالدهشة والغريب من عوالم الصحراء كلها توحي بقداسة الناموس الصحراوي ولابد لهذا الناموس أن يقدس وإلا ستنزل بأهل الصحراء لعنة تضرب بهم وتعصف بهم إلى الهامش، وهذا ما نلمحه في جل روايات الكوني نزيف الحجر، الصلاة خارج الأوقات الخمس، كلها تعمل على قداسة الأعراف والتقاليد الصحراوية والقداسة عند الكوني قداسة مطلقة تمس المكان والزمان بكل امتداداته وهذا ما يجعل فضاء الكوني فضاءا أسطوريا بامتياز تتزاحم فيه الغيبيات مع الخرافات والمعقول واللامعقول.

الخاتمة:

يعتبر فضاء الصحراء الوعاء الضخم للمقدس ومنه يستطيع الإنسان النهل من هذا الوعاء المشبع بكل المعتقدات والعادات والتقاليد والمتمسك بالتراث والتاريخ عبر العصور، والمتمسك بطوطمه باعتباره المقدس الذي وجب الحفاظ عليه من الزوال والفناء، للصحراء قانونها الخاص للتعامل مع الإنسان

الخطاء بغرض التطهير منها وذلك عبر التضحية بالقرابين أو بالأنفس، وأي تخريب أو تدنيس للناموس الصحراوي يعتبر خرقا للعرف ولشريعة الصحراء وانتهاك لحرمة المقدسات الصحراوية، وعليه تمكنا من هذا البحث من الخروج بنتيجتين كالتالي:

-إعادة بعث واحياء لقبائل الطوارق التّي عانت التهميش لحقبة من الزمن ولكشف ونفض الغبار عن المسكوت عنه وفضحه في قالب روائي عجائبي فلسفي روحي يرتقي إلى عالم الخيال والأسطورة، لذلك تزخر نصوص الكوني بتحف فنية رسمت صورة الصحراء بكل تفاصيلها من آثار حجرية ورسومات ما قبل التاريخ والنقوشات المتواجدة في جبال التاسيلي لتشكل للروائي مورد خيالي يستقي منه مكوناته التجريبية الجديدة.

-عمل الروائي على تقديس كل الجمادات وإعادة بعثه من جديد وفق علاقة الاتصال بين الإنسان والطبيعة، لهذا في كثير من الأحيان -ان لم نقل كلها-نجد أنّ الكوني عمل على استنطاق كل ماهو جامد وأوجد لها صلة القداسة فيما بينها عبر قالب الأسطورة وكل الشعائر والطقوس الروحية والعقائديةأو المعروفة بالطوطمية، كما استطاع الكوني التعبير عن مقدسات الصحراء وفق طابع رمزي فريد من نوعه.

الخاتمة

يعتبر فضاء الصحراء الوعاء الضخم للمقدس ومنه يستطيع الإنسان النهل من هذا الوعاء المشبع بكل المعتقدات والعادات والتقاليد والمتمسك بالتراث والتاريخ عبر العصور، والمتمسك بطوطمه باعتباره المقدس الذي وجب الحفاظ عليه من الزوال والفناء، للصحراء قانونها الخاص للتعامل مع الإنسان الخطاء بغرض التطهير منها وذلك عبر التضحية بالقرابين أو بالأنفس، وأي تخريب أو تدنيس للناموس الصحراوي يعتبر خرقا للعرف ولشريعة الصحراء وانتهاك لحرمة المقدسات الصحراوية، وعليه تمكنا من هذا البحث من الخروج بنتيجتين كالتالي:

-إعادة بعث واحياء لقبائل الطوارق التّي عانت التهميش لحقبة من الزمن ولكشف ونفض الغبار عن المسكوت عنه وفضحه في قالب روائي عجائبي فلسفي روحي يرتقي إلى عالم الخيال والأسطورة، لذلك تزخر نصوص الكوني بتحف فنية رسمت صورة الصحراء بكل تفاصيلها من آثار حجرية ورسومات ما

قبل التاريخ والنقوشات المتواجدة في جبال التاسيلي لتشكل للروائي مورد خيالي يستقي منه مكوناته التجريبية الجديدة.

-عمل الروائي على تقديس كل الجمادات وإعادة بعثه من جديد وفق علاقة الاتصال بين الإنسان والطبيعة، لهذا في كثير من الأحيان -ان لم نقل كلها-نجد أنّ الكوني عمل على استنطاق كل ماهو جامد وأوجد لها صلة القداسة فيما بينها عبر قالب الأسطورة وكل الشعائر والطقوس الروحية والعقائديةأو المعروفة بالطوطمية، كما استطاع الكوني التعبير عن مقدسات الصحراء وفق طابع رمزي فريد من نوعه.

المصادر والمراجع

-ابن منظور، 1956، ***لسان العرب***، *دار بيروت للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1*

-*الميلودي، عثمان، 2013، **العوالم التخييلية في روايات ابراهيم الكوني**، دار المحاكاة للنشر والتوزيع، سورية، ط1*

-*الياد، مرسيا، 1988، **المقدس والمدنس**، ترجمة، عبد الهادي عباس المحامي، دار دمشق للنشر والتوزيع، سوريا، ط1*

-*خان، عبد المعيد، 1981، **الأساطير والخرافات عند العرب**، دار الحداثة للطباعةوالنشر، بيروت، لبنان، ط3*

-*ريفيير، كلود، 2015، **الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان**، ترجمة، أسامة نبيل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1*

-*شلحد، يوسف، 1997، **المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده**، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1*

-*عبد الرحمان، عبد الهادي، 2000، **عرش المقدس-الدين في الثقافة والثقافة في الدين***-دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1

-*فرويد، سيجموند، 1983، **الطوطم والتابو**، ترجمة، بوعلي ياسين، دار الحوار للنشر، سوريا، ط1*

-معلم، وردة، 2016، **متخيل الفضاء في روايات إبراهيم الكوني**، الوسام العبي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1